تولستوى

ولد تولستوى عام ١٨٢٨ ، وهو العام الذى ولد فيه هنريك إيبسن . ومما هو خليق بالذكر أن كلا هذين العبقريين كان يكره الآخر ويحاربه فى أفكاره وآرائه . وليس فى هذا العداء المتبادل ما يدعو إلى الدهشة ؛ فتولستوى كان مالكاً لناصية الأفكار الحديثة، ويؤيد الجامعة المسيحية وينكر الفرد، فى حين كان هنريك إيبسن يؤيد الفرد وينكر حقوق المجتمع . فهما بذلك يتابعان نزاعاً موروثاً منذ أجيال متعاقبة . ومع ذلك فكلاهما ثورى ؛ فهما ، من هذه الناحية فقط ، متشابهان ، أما فيما عدا ذلك فهما متباينان ؛ فلكل منهما طريقه خاصة فى إبداء استيائه من العالم تختلف كل الاختلاف عن طريقة الآخر . كما كان لكل منهما مذهب يتشيع له ويدافع عنه ويقول بأنه خير المذاهب . ليس شك فى أن لكل منهما نفوذه وتأثيره . ولما كانا غير متفقين على رأى ، فان المرء ليميل إلى الاعتقاد بأن تأثير أحدهما يتناقض مع تأثير الآخر ويتعارض معه . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك ؛ فتناقض أفكارهما الشخصية ، مع انتشارها وذيوعها فى وقت واحد ، قد ضاعف من قوة الفوضى التى كانت سائدة إذ ذاك بين الكتاب والاضطراب المستحوذ على عقولهم .

قلنا إن تولستوى ثورى ، وكان الأجدر أن نقول إنه مصلح . فقد كان عدو الشدة والتعسف ، وكان يأبى أن تقاوم بمثلها ، ويبشر باللين والحلم كما وصفهما الإنجيل . أما إذا كان قد أثار الاضطراب والقلق وأشعل نيران الفتنة ، فمرجع ذلك إلى أنه كان يسعى إلى تحسين النظم القائمة وينادى بإصلاح المجتمع الإنسانى .

إن المصلحين والثوريين لعلى جانب عظيم من الخطر إذا هم حققوا غايتهم . على أن ضررهم يبدأ فى الظهور قبل أن يدركوا تلك الغاية كما يبدأ تأثيرهم السيئ فى الانتشار ، فيضيفون إلى الفوضى القائمة فوضى من نوع جديد هى أفظع وأفتك ؛ لأنها تجمع بين القديم والجديد .

كان تولستوى بسيطاً جداً، ولكنه كان — فى بساطته المتناهية — مؤثراً. وكانت نفسه من النفوس المعذبة، بل أشد النفوس عذاباً. وقد سعى إلى تخفيف ذلك العذاب وتسكين اضطراب نفسه، بجميع ما أوتيه من نبوغ وذكاء. وكان لا بد من عبقرية فذة لتتمكن من تلك النفس، وتهدئ من روعة ما تعانيه من الألم. ومع ذلك لم تفلح تلك العبقرية الفذة. لقد طالما بحث عن الحقيقة ونقب عنها فلم يجدها. على أنه قد وجد اليقين. فتلك الناحية من خلقه هى التى أثارت الدهشة من حوله. لقد انتزع الإيمان كل أثر للشك من صدر هذا الرجل، فبدا مطمئنا هادئاً وديعاً. فكيف استطاع هذا الجبار أن ينتزع عوامل الشك من صدره حتى أصبح لا يرتاب فى شئ على الإطلاق؟ إن لنا عقائدنا واعتقاداتنا، وهى قوية راسخة، ومع ذلك فإنها تترك فى نفوسنا بعض الأثر للريبة والتشكك. أما تولستوى فقد كان ينظر إلى جميع المسائل التى تعرض له نظرتين مختلفتين: فينظر إلى بعضها نظرة هامة عاجلة ويعجل فى حلها خدمة لنفسه، أو كما كان يقول: خدمة للإنسانية، وينظر إلى بعضها الآخر نظرته إلى الأشياء التافهة الباطلة ولا يهتم بها. كان العلم فى نظره شيئاً تافهاً معدوماً. فالأخلاق وحدها كانت فى نظره بمثابة الحقيقة الراهنة للحياة، فكان ملماً بجميع خباياها بحيث لم يعد يشعر بشئ من الشك والتردد.

لقد طالما رغب تولستوى فى ذلك الإيمان وبحث عنه حتى ظفر به فى النهاية! ومع ذلك فقد أجمع من عاشروه على أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب لا يخلو من القلق. وهذا فى الواقع ما كان يجعله مؤثراً، وإن كان المذهب الذى نادى به ومات عليه مذهبا خاطئا سيئ العاقبة، عظيم الضرر.

كان تولستوى من أسرة عريقة فى النسب... وعلى الرغم من أنه — وهو فى السبعين من عمره — أصبح رسول المساواة المطلقة بين جميع الرجال، وزعيم فلسفة شعبية، فإنه ظل محافظاً على نزعته الأريستقراطية تحت ثوب العمال الذى كان يرتديه، وظلت أنانية الكونت تولستوى الشريف الروسى متجلية وراء مذهب الإصلاح أو الثورة الذى كان ينادى به.

أتم تولستوى دراساته فى جامعة قازان القائمة فى أعماق روسيا، ثم التحق بالجيش، أسوة بجميع أبناء الشرفاء، برتبة ضابط فى المدفعية. وكانت فرقته معسكرة فى القوقاز فقضى عدة سنوات يعيش عيشة الترف والبذخ والحرية

المطلقة ، كما كان يعيش السادة فى عهد الرق والاستعباد . لم تكن له فى ذلك العهد عقيدة، فكان لا يؤمن بشىء غير اللهو والمرح. وقد كتب فيما بعد : « لقد عشت فى هذا العالم خمسة وخمسين عاماً — وإذا أنا استثنيت سنى طفولتى — فقد عشت فوضويا عدميا بكل معانى هذه الكلمة ، لا اشتراكيا ولا ثوريا بالمعنى الذى يطلق على هاتين الكلمتين ، ولكن « نهيليستيا » أى خارجاً « على كل النواميس والشرائع . »

كان مطلق الحرية فى القوقاز، فأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ثم اشتعلت نيران حرب القرم ، وهو فى السادسة والعشرين ، فأغرته نفسه الفتية بخوض تلك المغامرة ، وطلب أن يشترك فيها فأجيب إلى طلبه . كان موجوداً فى سباستوبول عند ما ضرب عليها الحصار ؛ فوصف ، فى ثلاث قطع ، صور الحوادث التى شاهدها، فكانت تلك القطع فاتحة مؤلفاته . وما إن عقد الصلح بين روسيا والدول حتى استقال من منصبه ، وترك الجيش وسافر إلى بطرسبرج وقضى فيها وفى موسكو ثلاث سنوات فى لهو وعربدة . كان مثال « الكونت » الصغير رشيق القامة رقيق الحاشية لبق الحديث، فكانوا يتوددون إليه ويلتفون حوله؛ لما كان يبدو على محياه من ذكاء وفاد، وما اشتهر عنه من النجاح فى المنتديات والأوساط الراقية بل فى بلاط القيصر . ومرت هذه السنوات وهو يتقلب بين أحضان الطيش واللهو ، ولكنها مع ذلك كانت غزيرة الإنتاج بفضل ما وقف عليه تولستوى من الحقائق المقنّعة المستهترة، والمظاهر الخلابة الكاذبة . وفى سنة ١٨٦٠ تزوج ، فهدأت ثائرته وانقطع إلى قصره فى مقاطعة تولا .

لقد كتب، قبل ذلك التاريخ ، «القوزاق» ثم أعقبه بكتابه « طفولة وحداثة وشباب » وهو قصة حياته ، أودعها مع بعض التحريف ، جميع ذكرياته . لقد دلت هذه القصة على ما كان عليه ، وتنبأت بما سوف يصل إليه ؛ فقد كان يتمتع ببعد النظر، وينعم بموهبة الوصف والتصوير، وفى ذلك سر عبقريته . كان ينظر إلى الأشياء على حقيقتها ويراها كما يجب أن تكون عليه ، ويلم بجميع نواحيها ودخائلها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ويصفها وصفاً شاملاً ، فيتناول فى هذا الوصف حياته ومعيشته ، ويتكلم عن حقيقة القرى والأشخاص والنفوس . فأشخاصه القوقازيون قد رآهم وعاشرهم ؛ لأنه قضى ردحاً من الزمن فى بلادهم وبين ظهرانيهم . لقد تخيل شخصية أولنين على شاكلته، فجعله يمل الحياة المضطربة

المائجة التى تمر فى المدن الكبيرة ، وجعله ينزح إلى تلك القرية الموحشة فى بلاد القوقاز ، وهناك يعلق قلبه بحب ماريان ابنة مضيفه . غير أنه لم يفلح — على الرغم من حبه العظيم لها — أن يروض نفسه ويجعلها شبيهة بنفس ماريان ، بسيطة ، ساذجة ، صريحة . سيحاول تولستوى فيما بعد أن يضرب على منوال أولنين ، ويبسّط حياته وقلبه وعقله ؛ لينزل بها إلى مستوى العمال والفلاحين الذين اختلط بهم . تلك كانت رغبته الصادقة ، ولكنه يظل على ما كان عليه من الإبهام والتعقيد بل أكثر مما كان عليه ، لأنه حاول ألاّ يكون مبهما أو معقّداً .

إن من يقرأ ذكريات حداثته يتبين أنها لاذعة شديدة الوطأة فيدهش . على أنه لا يلبث أن يراجع نفسه متى علم بأن تولستوى كان ينظر إلى الحقيقة نظرة غريبة قاسية . وهذا ما يتجلى عند قراءة كتابه الذى وصف فيه أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عربيداً سافلاً . أما أن يكون أبوه ذلك السافل العربيد ، وأن يكون قد رآه على تلك الصورة ، وأن تحمله صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، فهذا دليل قاطع على ما كان عليه هذا الرجل الفذ من صفاء الذهن وقوة الإرادة التى تحمل على الدهشة ، بل تجرح الشعور ما دمنا قد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة خفية مستترة متساهلة إذا ما اتصل الأمر بذوينا . أما تولستوى فكان يعتقد بأنه يكذب لو أنه فعل مثل ذلك . ثم إن الواحد منا يعد نفسه ، كما يعده الناس طرًّا ، عابثاً ، عاقاً ، إذا وصف أباه ولم ينمق الوصف ، فى حين أن تولستوى لا يحمل أى حقد لأبيه ولا يعتب عليه أو يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاته وصفاً دقيقاً . وهو أيضاً يصف لنا نفسه كما يراها . فها هوذا يصفها لنا إذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقد ضل وفقد إيمانه وبدأ حياته النهيليستية ، أو « حياة العدم » كما يعبر عنها بنفسه :

« إن المذهب الفلسفى الذى سحرنى أكثر من جميع المذاهب الفلسفية الأخرى ، هو مذهب التشكك . وقد قادنى ، ردحاً من الزمن ، إلى حالة قريبة من الجنون . فقد كنت أتخيل أنه لا يوجد ، ماعداى ، شىء أو كائن فى العالم ؛ وأن الأشياء ليست بأشياء ، بل هى مجرد مظاهر كاذبة أتصورها متى كنت فى حاجة إليها ، ثم تتوارى وتتلاشى متى تناسيتها أو كففت عن التفكير فيها . ففى بعض الأحايين كنت ، وأنا تحت تأثير تلك الفكرة الملازمة ، أفقد شعورى إلى حد أن كنت ألتفت فجأة وأنظر إلى الخلف عسى أن يقع نظرى على العدم قائماً حيث

لم أكن موجوداً . كان عقلى الضعيف لا يستطيع التغلغل إلى أعماق المجهول؛ فقد يفقد ، تحت تأثير هذا العمل المرهق ، ما كان عندى من العقائد واحدة فواحدة . وقد كان يجب علىّ أن أحافظ عليها لكى أحتفظ بسعادتى وهناءتى . تلك الجهود الفكرية أكسبتنى شيئاً من حدة الذهن وسرعة الخاطر ، وأضعفت عندى من قوة الإرادة بقدر ما أكسبتنى من الميل إلى التحليل الأخلاقى الذى أصبح عندى بمثابة عادة ، ونزع عن مشاعرى كل طراوة ، وحمل اللبس إلى آرائى .»

تلك ـ لاشك ـ صفحة غريبة . وهى تكشف لنا عن دخيلة ما انطوت عليه نفس فتى يافع قد اخترع لنفسه ـ لمجرد استعماله الذاتى أو ليكون سببا فى تعاسته وشقائه ـ مذهباً فلسفيا على غرار المذهب المثالى الذى قال به باركلى ولكن فى أقصى حالاته . وهـذا المذهب يقول بأن الأشياء على اختلاف أنواعها قائمة على إدراكنا الحسى لها ، ولذلك فإن حقيقتها المستقلة عنا لا بد أن تتلاشى وتختفى ، وأننا نعيش فى عالم من المظاهر نخلقه نحن لأنفسنا . ليس شك فى أن تولستوى ـ وهو فى السادسة عشرة من عمره ـ لم يقرأ باركلى ولم يرشده إليه أحـد . فالمخيلة التى أوجدها لنفسه هى من صنع قواه المدركة الحادة المرهفة .

وهاك مثلاً آخر من الهذيان الذى قادته إليه حساسيته ويتجلى فى كتاباته : « عندما أتذكر عهد طفولتى والحالة العقلية التى كنت أتمتع بها آنئذ ، أدرك معنى الجرائم الفظيعة الوحشية التى ترتكب بغير ما غاية وبغير ما رغبة فى الإيذاء ، بل بدافع الفضول واللاشعور ، أو بدافع الحاجة إلى ارتكاب فعلة ما . ثم إنه تمر بالمرء أحياناً فترات من الزمن يرى فيها المستقبل فى ألوان قاتمة وأوضاع متباينة ، حتى ليخشى العقل أن يقف حيالها أو يتناولها بالتفكير فيغمض عينيه لكيلا ينظر إلى هذا المستقبل ، ويقف فعل العقل والتفكير ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه لن يوجد مستقبل ولم يوجد ماض . فى تلك اللحظة التى يقف عندها الفكر عن مراقبة كل وازع من الإرادة ، وتصبح الغرائز المادية عماد الحياة ورائدها ، فى تلك اللحظة أدرك ما يرتكبه الطفل القليل الاختبار بلا تردد ، وأفهم لماذا يشعل النار ويذكى ضرامها بأنفاسه ، وينظر إليها بابتسامة ساذجة فضولية وهى تلتهم البيت الذى يرقد فيه إخوته وأبويه وكل الذين يحبهم حبًّا عميقاً . فى تلك اللحظة التى تتوارى فيها الفكرة خلف حجب اللهو أو

النسيان والعدم ، يقف القروى اليافع إلى جانب الدكة التى يضطجع عليها أبوه الشيخ وهو ينظر إلى شفرة المعول التى تلمع فى يديه ، وفجأة ترتفع تلك اليد بما تحمل فى قبضتها وتهوى ، وتتحول نظرة الفتى من المعول إلى الدم الذى يتفجر من الرأس المحطم . إن المرء ليجد ، إذ يكون فى مثل تلك الحالة ، نوعاً من اللذة فى الانحناء على حافة الهاوية السحيقة وترديد هـذه الفكرة : « لو أننى أنحدر إلى أسفل ورأسى إلى الأمام ! » أو أن يضع فوهة مسدس أو غدارة محشوة على جبينه ويهذى قائلا : « لو أننى أضغط على الزناد ! » أو أن ينظر إلى شخص عظيم الشأن محفوفاً بمهابة الجميع ويقول لنفسه : «لو أننى أتقدم إليه وأجره من أنفه وأقول له : « إيه ! أيها الرجل الطيب هلا أتيت معى ! ». يقيناً إنه لجنون وإن كان الوصف جذاباً . . . »

هذا ما ورد فى كتاب « القصة الروسية » للكونت دى ڤوجويه . وهو يقدر أن ذلك يعد نتيجة لإحساس روسى بحت أو « نوبة » شائعة فى روسيا باسم « أوتشايانييه » ومعناها « اليأس » . وإن كان من النوع الذى ينطوى على التعصب والوحشية والسخف المتعمد المقصود ، كما أنه نوع من السخط المشوب بالكآبة والحزن والاستسلام الذى يأباه تولستوى ؛ لأنه استسلام الذات والنفس والحياة لعوامل قوية مستترة خطيرة مغرية رائدها الخطر . أو بعبارة أخرى هو نوع من السحر المخيف المسف وإن كان فى ظاهره بسيطاً ساذجاً . . . ثم يستطرد ڤوجويه حديثه بقوله : « مسكينة روسيا ! تلك هى روحك وهى روح طائر مائى يحلق فوق العاصفة ويرفرف فوق الهاوية ! »

هذا ما كتبه ڤوجويه عام ١٨٨٦ . وإن تاريخ روسيا الحديث ، تاريخها عقب ثورتها الأخيرة ، كفيل بأن يعزز هذا التشخيص الدقيق لذلك الداء الوبيل .

لقد كان تولستوى ، مع ما كان عليه من عبقرية فذة ، روسيًّا بحتا وروسيًّا كبيراً . كان روسيًّا بكل قطرة من دمه ، فكان لا يخلو من أية حاسة أو أى شعور أو عقيدة أو نزعة أو سخافة روسية . وهذا ما جعله يصف روح بلاده وروحه ، ويعبر عن حقيقتها تعبيراً صحيحاً دقيقاً . إنه يصورها تصويراً حسيًّا يحمل على الدهشة والعجب . على أن هذا التصوير يخفف عناء البحث والتفكير على قارئه ويجعله يفهم خباياها ويشعر بها . إنها روح مستسلمة للأحلام ، فلا تجد فرقاً بيِّناً بينها وبين الحلم الذى تسبح فيه أو الحقيقة التى تلمسها . ومع ذلك

فتلك الروح تفكر وتعقل ، ولكنها تناقش وتقيم البينات والحجج للتدليل على صحة خيالها أو على الحقيقة . هذه الروح تتمتع بكثير من الفضائل . وبين تلك الفضائل فضيلة ممتازة هى الصبر عند الشدائد . إنها أقدر من سواها على تحمل الألم والجلد . ويظهر أن استسلامها لا يكلفها شيئاً ، وإن كان فى الواقع يحملها أشياء ؛ لأنها لا تستطيع كتمان ما يعتريها من ثورات فجائية يتجلى فيها حقدها ثم ينفجر . إنها لا تنظر إلى الزمن والفضاء كما ننظر إليهما ؛ فليست لها فكرة ثابتة عنهما ؛ لأنها تضل وتتيه فى دياجير الزمن والفضاء . إنها روح ضالة شريدة معذبة تستسلم فجأة لنزعاتها ونزعاتها مهما كانت مسفة أو خطيرة . إنها روح مريضة . إن القصص الروسية التى لقيت رواجاً عظيماً ، وبصفة خاصة قصص تولستوى قد كشفت عن صحة ذلك . تلك كانت روح روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى . وهى روح مترددة غير مستقرة . فقد خانت كل من وثقوا بها ، كما خانت نفسها بسذاجة وجهل ، وقد كان ذلك أشد خطراً عليها من أعدائها .

إن « حرب وسلم » و « أنّا كارنين » أشهر مؤلفات تولستوى وأبدعها . ولكنه عند ما تحول من قصصى إلى رسول مبشر ، أصبح يحتقر عمله كقصصى ، وبصفة خاصة هذين المؤلفين . لاشك فى أنه أخطأ فى تحقير هاتين الدرتين الخالدتين ، فقلّ أن يوجد فى الأدب ما يضارعهما ، وقل أن يوجد بين الأدباء من وضع فى مؤلفاته من الحقائق ، وضمنها من الوقائع ، وكشف عن خفايا النفوس وأضاءها مثله . وقل أن يوجد من تناول الحديث عن خبايا تلك الآلة المتحركة ، ووصفها فى دورانها السريع وحركاتها الظاهرة والخفية وذاتيتها ونزعتها الخاصة وخصائصها كما تناولها تولستوى . فكأنه كان يفكك أجزاء تلك الآلة لكى نقف على تركيبها وأسرارها .

إن كتاب « حرب وسلم » هو وصف للحياة الروسية فى بدء الجيل الماضى خلال حروب نابليون . إن تولستوى يبعث هذا الماضى من قبره . فأحد الأشخاص هو إمبراطور فرنسا ، والآخر هو قيصر روسيا . إنهما ولا شك من العظماء وهما زعيمان . على أن تولستوى لا ينعم عليهما بهذا اللقب ، فلا يوجد عنده زعيم . إن تولستوى عبقرى ، وهو لذلك لا يكتفى بأن يرى ، بين الحوادث البشرية ، السبب الظاهر الجلى ، على الرغم من أن هذا السبب قد يكون أحياناً أوضح

من الحقيقة . إنه يؤمن بالأسباب الصغيرة المتعددة فيبحث عنها بين الجماهير والجموع ؛ ولذلك رأى أن الذين رأسوا الحركة وتزعموها هم من العامة لا هُمَا . يوجد فى « حرب وسلم » شخصية بذّت الأباطرة وسمت عليهم ، وتلك الشخصية هى الجموع والجماهير وعامة الشعب . وهذا ما يزيد فى ثروة تلك القصة ويرفع من مكانتها . وهذا ما يجعل التجانس كبيراً بين هذا الكتاب وبين الحقيقة الحية .

فى وسط تلك الجموع اختار تولستوى أشخاصاً يمثلون ، أو يمثل كل منهم إحدى خصائصها . فكلما ازدادت مظاهر هذه الجموع ازدادت الوحدات التى تؤلفها . وأحد هؤلاء الأشخاص الذين تعرض لهم تولستوى بكل دقة وإخلاص هو الكونت بطرس بزوكوف ، وهو روسى بمعنى الكلمة ، وهو ذكى عالم وديع سهل الانقياد متحفز للشهوة سريع الخاطر رقيق الحاشية جدير بكل تبذل وجنون ، ميال إلى الكسل كما أنه ميال إلى العمل المتواصل المرهق . وهو إلى هذا كله شريف لا يتقهقر أمام ارتكاب نقيصة أو جرم . كانت النار تلتهم موسكو دون أن يعلم أحد من أشعل ضرامها ، وكان بطرس بزوكوف فى قصره ، فغادره فى زى قروى واختلط بجموع الشعب . كان يحمل تحت معطفه خنجراً حاداً ؛ ربما كان يقصد قتل نابليون . وهو إن قتله فلكى ينتقم لروسيا . وهو يعلم ما كان ينتظره من وراء ذلك . على أنه لو قتل نابليون فغايته من ذلك التضحية . ومجمل القول أن ما كان ينتظره لم يثنه عن عزمه بل زاده حمية . إن قتل نابليون ، لو تم ، كان سبباً فى موته ، هو نفسه ، وهذا ما كان يبتغيه ، وهذا ما لم يفعله . إن البون شاسع بين ما يريده بزوكوف وبين ما كان يجب أن يقدم عليه . فبين إرادته وتنفيذ ما يريده يحجم كل ما فى نفسه من تشكك وتردد .

وقع بزوكوف أسيراً بيد الفرنسيين ، فكانوا يعاملونه بمنتهى القسوة والوحشية . لشد ما كان يتألم ! ولكنه يلتقى وهو فى الأسر بقروى يدعى أفلاطون كراتايف . وهو رجل معدم ونكرة بالنسبة له . وهو إلى جانب هذا عار عن كل فكرة بعيد عن كل تفكير ، إذا نزع حذاءه فاحت من قدميه رائحة كريهة حادة . وكان يجلس القرفصاء ويضم يديه إلى ركبتيه ويظل شاخصاً إلى بزوكوف . ماذا كان يريد من بزوكوف ؟ لاشئ على الإطلاق ، إلا أنه كان ينظر إليه . وبزوكوف من جانبه كان ينظر إلى كراتايف . فماذا كان يريد منه ؟ هل يريد درساً أم يريد نصيحة وإرشادا ؟ ولكن أى درس يمكن أن يرجوه بزوكوف العالم من هذا

الغبى الجاهل ؟ . . . هنا تتجلى الفلسفة التى سيعتنقها تولستوى ، وتصبح رائده وموضوع رسالته . إن بزوكوف قد اكتشف الحقيقة فى عقلية أفلاطون كراتايف البسيطة الساذجة . . . وأية حقيقة ياترى ؟ . . . طهر الكائن وزهده واستسلامه للقدر .

وتبادل بطرس بزوكوف بضع عبارات مع أفلاطون كراتايف . إلا أن ما قاله أفلاطون كراتايف لا يعدو حد السخف . . . بعض ألفاظ سقيمة عقب عليها بابتسامة وشرحها بما يفيد عجزه عن عمل أى شئ ، وأن الحال يجب أن تكون كما هى عليه ، وأن خير ما يعمل هو قبول ما لا يمكن رفضه ويتعذر تبديله . يجب الاستسلام لذلك بغير مقاومة . وأخذ التعب من أفلاطون كراتايف حتى لم يعد يقوى على السير ، فقتله الجند برصاصهم دون أن يبدى أية مقاومة أو تأخذه هزة اضطراب أوغضب . لقد مات وهو يتألم . واتخذ بطرس بزوكوف من كراتايف رائداً له . . . هذا مؤثر للغاية وهو سخيف أيضاً . وفى مثل ذلك دعاية إلى هدم التفكير وانعدام الفكرة . فهل يمكن أن تؤدى جهود الفكرة البشرية إلى مثل ذلك الانتحار للفكرة ؟ . . . الواقع أن ما فعله بزوكوف سيفعله تولستوى .

أما القصة الثانية «أنّا كارنين» فمكانتها لا تقل عن مكانة « حرب وسلم » . فيها واقعة غرامية تنمو وتتطور بتطور الحوادث المزعجة التى تتخللها ، وفيها خاتمة . أما الفن فيها فيتساوى مع سابقتها كما تتساوى قوة الابتكار والتنبؤ التى يظهرها المؤلف فى معرفة النفوس وحيرتها واضطرابها . ويوجد فى «أنا كارنين» كما فى « حرب وسلم »شخص اودعه تولستوى بعض أفكاره الهامة . وهو فى هذه القصة بمنزلة بزوكوف فى القصة الأولى . هذا الشخص يدعى : ليڤين .

قسطنطين ليڤين رجل نبيل ، يعيش فى الريف طبقاً لعادات خاصة . وهو شريف النفس ، طيب السريرة ، كان يود أن يحسن حالة القرويين ، ويخفف عنهم وطأة الحياة ، ويحطم أغلال الاستعباد التى تقيدهم متأثراً بالأفكار الحرة التى كانت تشتعل فى نفوس بعض الروسيين . على أن تعصبه لمذهب الحرية المدنية والدينية لم يكسبه إلا المتاعب واليأس . مات له أخ كان يحبه ويقضى حياته بصحبته ، فأثر هذا الحادث فى نفسه تأثيراً كبيراً . وإلى جانب ذلك كان يقرأ شوبنهاور ، فلم يربح من تلك القراءة شيئاً ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وتملكت

الكآبة نفسه، وتحولت تلك الكآبة إلى نوع من الفلسفة والاستسلام . وصار يعتقد أنه ليس إلا ذرة حقيرة ضئيلة تكونت فى اللانهائى ، وسارت مع الوقت فى هذا الفضاء وتألبت مع المادة ولا بد أن تنفجر وتتلاشى كالفقاقيع التى تطفو على سطح الماء . « هذه الذرة هى أنا » . أزعجه ذلك القياس وتأثر منه كثيراً . ولما لم يكن إلا قياساً ، فإنه لم يلبث أن هجره ، وإذ ذاك ضل كل الضلال ولم يعد يعرف شيئاً إطلاقاً . وخاطب نفسه : « ما دمت لا أعلم من أنا، ولماذا أنا هنا فى هذه الحياة ، فإن الحياة تصبح أمراً مستحيلا . ولما كان المستحيل أن أدرك ذلك فلا شك فى أن الحياة مستحيلة . »

من السهل أن يقول المرء إن الحياة مستحيلة وهو مع ذلك يحيا . فلو أنه كان يتمتع بقليل من الإدراك العقلى لوجب عليه أن يقول : « إننى أحيا وإذن فالحياة ليست مستحيلة . » ولكن هذا الإدرك العقلى لا يوجد . وهو عند ليڤين أقل منه عند أى شخص غيره . ثم إنه يقول لمن يريد أن يستمع إليه ويقول كذلك لنفسه : « لا يجب أن يحيا المرء لنفسه ، ويجب أن يحيا لله . » ولما كان مظهره وهو يقول ذلك يدل على الثقة والطمأنينة والهناءة ، فهيئته هذه تدل على أنه على حق . لقد سُرَّ ليڤين لتلك الحقيقة، وانضم إلى فكرة فيدور وخاطب نفسه بقوله : « كل الشر ناتج عن سخف العقل ووضاعته ! »

لقد استعاض هذا الرجل بفيدور عن جميع الفلاسفة وشوپنهاور . لقد قرب الكونت ڤوجويه فى كتابه « القصة الروسية » بين ارتداد بزوكوف وارتداد ليڤين إلى الإيمان . وأضاف تلك الملاحظة : « فى ذات يوم التقى تولستوى وسوتائف ، كما التقى بزوكوف وكراتايف ، وكما التقى ليڤين وفيدور الرجل الطيب » .

كان سوتائف قرويا من تڤر . اخترع فلسفة أو دينا نادى ، به وأخذ ينشره فى نزهاته وأحاديثه . بدأ فيه بالإنجيل، فأخذ يفسره على طريقته بإخلاص وبغير تعقل . واستخلص منه مذهباً يدعو إلى الإخاء وتنظيم الحياة المشتركة والشيوعية. وهكذا كما رأينا بزوكوف وليڤين يلتحقان بمدرسة كراتايف وفيدور الرجل الطيب ، نرى أن « مؤلف حرب وسلم » و « أنا كارنين » وفيما بعد مؤلف « اعترافى » و« دينى » ، و« ماذا يجب فعله ؟ » يلتحق بمدرسة سوتائف الرجل المتعصب .

وتغيرت جميع أساليب حياته .

ففى «دينى» يقص أنه بينما كان فى موسكو مر بباب بوروفيتزكى ، فوقع نظره على شيخ متسول مريض مقطوع الساق ومعصوب الرأس ، وتأهب تولستوى ليحسن إليه ببعض النقود ، إلا أن المتسول وقف فجأة بقدر ما تسمح له حالته ، واندفع هاربا مذعوراً ؛ فقد رأى جندياً شابًّا فى أحسن الهندام جميل الوجه مقبلا عليه ومهدداً ، وطارده الجندى وهو يقذفه باللعنات ؛ فقد كان من المحظور على المتسولين الجلوس بباب المنزل الذى يقيم فيه بوروفيتزكى . وانتظر تولستوى حتى داناه الجندى وسأله :

— هل تعرف القراءة ؟

— يقيناً !

— وهل قرأت الإنجيل ؟

— بالطبع !

— وقرأت فيه تلك العبارة : « إن من يطعم جائعاً وما يتبعها . . . »

وكان الجندى يذكر تلك العبارة ، فبدا عليه الاضطراب وأخذ يسائل نفسه هل هو أخطأ مع أنه يقوم بواجبه العسكرى . وأخذ يبحث عن جواب يلقيه على نفسه وعلى تولستوى الذى يخاطبه . . . وفى النهاية قال لمحدثه :

— وأنت إذا كنت تعرف القراءة فهل قرأت اللائحة العسكرية ؟

واضطر تولستوى إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها . فاستطرد الجندى :

— إذن اسكت !

وابتعد وهو يهز رأسه ، ومشى وهو يختال عجباً .

فلماذا كان يحاول أن يزعج أفكار الجندى ، ويحول بينه وبين القيام بواجبه ؟ لم يكن يتعمد ذلك ولم يفكر إلا فى هدايته إلى أرجح واجباته وأسماها . ولكن هذا الجندى كان يرى أن واجبه فى تلك اللحظة هو فى اتباع الأوامر . على أنه ليس من المعقول إلغاء لوائح البوليس والقوانين ؛ لأن الإنجيل يأمر بالإحسان . إن تولستوى يغالى فى تعاليمه ، والجندى كان على حق إذ يلاحظ هذه المغالاة ويرفض أن يحطم شعوره بواجبه مقابل مغالاته فى تطبيق سنة الإنجيل .

كان تولستوى يحب الحقيقة إلى حد الشغف والتدله . كان يحبها لأنه طالما رغب فيها وتمناها ، وطالما تألم بسببها قبل إدراكها . هذا هو التعليل الوحيد

الذى كان يقدمه هذا الرجل العظيم ويجيب به على كل من كان يعارضه فى رأيه . وهو تعليل عجيب . إن السبب فى كل ما وصل إليه ناشئ عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته، ولم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها بل زادت فى حدتها . إنه كان لابد له أن يكون رقيق الشعور مرهف الإحساس متيقظ الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لإدراكه العقلى ، لكى يتمكن من وصف شخصياته فى مختلف الأزمنة وتصوير نفسيتهم وشعورهم . ولكن مثل هذه الحساسية كانت عذاباً مستمرًّا ؛ فقد كانت تحوِّل كل فكرة من أفكاره إلى قلق واضطراب . إن مذهب التشكك الذى طالما ارتاح إليه غيره ، كان عند تولستوى مصدراً لأفظع الأحزان والآلام . والحقيقة التى كانت فى نظر غيره موضع الفضول كانت محط أنظاره وسعيه يبحث عنها كما يبحث الغريق عن حبل الإنقاذ، ويحاول الوصول إليها عسى أن يدرك بوساطتها شاطئ الخلاص، حتى إذا أدركها قبض عليها بيديه القويتين، ولن يقوى إنسان — أيا كان — على أن يجعله يتخلى عنها أو ينكرها .

وليس أدل على تمسكه بمذهبه وارتياحه إليه من قوله يخاطب بعض أصدقائه : « إذا أنت أدخلت قطعة من القش بين آلات ساعة وقفت جميع أجزائها وكفت عن الحركة . ولكنك إذا انتزعتها عادت جميع الأجزاء إلى سيرها الطبيعى ، وهذا دليل قاطع على أن هناك ضرراً من وجود قطعة القش بداخل الآلات . والأمر كذلك إذا أنت أدخلت فى حياتك مذهباً خاطئاً . . . تسألنى لماذا أومن بأن مذهب المسيح هو المذهب الصحيح ، وتطالبنى بالدليل على ما يحملنى على الاعتقاد بهذا المذهب ؟ . . . إذن هاك الدليل : عندما تدخل الفكرة المسيحية الحقيقية إلى أعماق النفوس ، فإن الحياة بأسرها تنتظم وتصبح جلية هينة منسجمة ، ويتلاشى التردد وتزول الاعتراضات . . . إننى أعتقد بمذهب المسيح لأننى لا أعرف مذهبا آخر يستطيع أن يهب مقداراً من السعادة يضارع ما يهبه هذا المذهب إلى مثل هذا العدد العظيم من الناس إن لم يكن إلى الناس طرا . لا نزاع فى هذا اليقين ! إن السفسطائيين يحاولون عبثا طمس معالم هذه الحقيقة . والكتّاب أمثال نيتشه الذين يتبجحون فى تأييد نظرياتهم الفردية ، ويدعون بأن العطف والشفقة ضرب من الضعف ، لا يمكن أن يكونوا مخلصين . إن مذهبهم كاذب . والمذهب المعارض لمذهبهم واضح تمام الوضوح لمن يبصرون . »

لقد ذهب بعض الكتّاب — ومن بينهم الكونت دى ڤوجويه — إلى القول بأن تولستوى كان متصوفاً . على أن الذى يتبين من كتاباته وأقواله أنه لا يدين بهذا المذهب ، وأنه « واقعى » أو — إذا شئت — اختبارى . فقد قام تولستوى بكثير من الاختبارات فى الحياة ، لم يفلح بعضها فأثار حزنه ، وأفلحت الأخيرة ونجحت نجاحاً باهراً . أما فلسفته فليست — كما قيل — عوداً على المسيحية فى أول عهدها ، ولكنها تفسير للمسيحية إنها تؤمن وتدعى لنفسها الحقيقة ، وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسيحية التى تقول بها الكنيسة لروسية بل الكنائس أجمع . ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرأ النبذة الآتية : « كل شئ كان يعززلى الحقيقة بالمعنى الذى وجدته فى مذهب المسيح ، ولكننى مكثت طويلاً دون أن أفهم السبب الذى جعلنى أكتشف شريعة المسيح كما لو كنت أكتشف شيئاً جديد العهد ، وإن كان قد مرّ على تلك الشريعة ثمانية عشر قرنا توافر خلالها آلاف الناس ووقفوا حياتهم على دراسة هذا الإيمان . . . »

تلك أنانية مدهشة مع ما فيها من تواضع غريب . على أن ما يبدو على تولستوى من القلق ليس مستغرباً . لقد اكتشف ، أو اخترع المسيحية كما لو كانوا يكتشفون الآن أمريكا فيجدون أنها ليست كما كانوا يتوهمونها أو كما كانت عليه فى عهد كولمبوس ! أما كيف صنع تولستوى مسيحيته فواضح من حديثه لبعض أصدقائه : « عندما أقرأ عظة الجبل أتبين أن الحقيقة كما يجب أن تكون تتجلى فى عباراتها . فكل ما جاء فى الإنجيل مطابقاً لما ورد فى عظة الجبل ، فأنا أسلم به . أما الباقى فأنا أهمله أو أرفضه . » . وهكذا فإن العظة التى ألقاها المسيح وهو على الجبل ليس فيها ذكر ألوهيته ؛ ولذلك كان ينكر تولستوى ألوهية المسيح . هذا تعليل غريب . وإذا قيل لتولستوى إن هذه العظة أخلاقية ولا معنى إذن لأن تتضمن تعزيزاً لألوهية المسيح ، فإنه كان يتبرم لهذا الاعتراض ولا يجيب عليه ؛ إذ كان شديد التمسك بعقيدته ولا يقبل أى اعتراض عليها .

ليس شك أن التفسير التولستوى لعظة الجبل لا يخلو من نزعة صبيانية . لقد فصل تولستوى تلك العظة عن الإنجيل ، وجعل منها إنجيلا له يفسره كيفما شاء ، ويريد أن يجعل منه برنامجاً لحياة من نوع جديد كان يطالب بتحقيقه .

يوجد نوعان من الحياة البشرية أو بعبارة أصح من الحياة فى المجتمع

— لأن الحياة الفردية بمعنى الكلمة لم توجد — وهذان النوعان هما الحياة الريفية والحياة العملية . فإذا أسف فيلسوف لاندفاع الناس فى معترك الحياة العملية فليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه . وإذا أسف على الحياة الريفية فيمكن أن يقال عنه بأنه شاعر . وإذا كان يتوقع عودة الإنسانية إلى الحياة الريفية فيصح أن يقال عنه إنه حالم . أما إذا جاء هذا الحالم إلى ميدان الحياة العملية وأراد أن يفرض على من فيها العودة إلى الحياة الريفية ، فأقل ما يقال عنه إنه مخادع . فإذا خدع تولستوى نفسه فله عذره ، وإن كان لا يخلو من الخطر ؛ لأن تأثيره كان عظيما.

لقد أنكر تولستوى كل وطن باسم الاشتراكية البشرية . لقد كان للروس قبيل الحرب العالمية الأولى كثير من المعلمين غير تولستوى . وقد ضللو بهم حتى لقد انسحبوا من الحرب قبل نهايتها ؛ وما ذلك إلا عملا بتلك التعاليم الخطيرة .

إن مبدأ عدم مقاومة الشر هو أحد المبادئ الرئيسية التى يتضمنها برنامج تولستوى . وقد تذرع الروس بهذا المبدأ ليشتروا وهنهم وخورهم والسحابهم من الحرب ، لم يقاوموا الشر الذى كانت تمثله ألمانيا فى ذلك العهد ، وكذلك لم يقاوموا الشر الذى استفحل فى بلادهم ، فظلت خلال سنوات عدة مسرحاً للفوضى وإراقة الدماء . وإذا كانت روسيا قد استعادت الآن مكانتها فلأنها تخلت عن هذه التعاليم بعد أن تبين لها خطؤها ، ووقفت فى وجه الشر وقاومته .

كان تولستوى يأبى أن ينظر إلى النتائج . وكثيرون من كتاب الروس من هم على شاكلته . لقد وضع مبادئ مذهب ، وهو يحافظ عليه مهما كانت نتائجه. يقيناً أنه كان لا يرغب فى أن تصبح روسيا — فى بعض عهودها — مسرحاً للشر ؛ فمذهبه ، كما فكر فيه ، لا يرمى إلى تلك الغاية ولا يذهب إلى هذا الحد ، على أنه كان سبباً لتلك النتيجة ، وهذا ما يستحق اللوم عليه .

كان تولستوى فذًّا فى عبقريته ، فذًّا فى تفكيره وبسط آرائه ، فذًّا فى معيشته . فقد كان يرتدى لباساً قيل إنه شبيه بلباس الموجيك أو القرويين وإن كان فى الواقع لباس العمال . كان هذا اللباس مؤلفاً من معطف أسود معقود عند المعصم ، وملتصق بالجسم عند الخصر بزنار من الجلد ، ومفتوح عند العنق تحت لحيته البيضاء المسترسلة على صدره . كان هذا اللباس ملائماً ومناسباً

وأكبر الظن أنه اختاره لنفسه مرضاة لراحته، أو تشبها بتلك الشخصية التى نادى بها تطبيقاً لمذهبه. لقد كان هذا المذهب على شئ من الشدة؛ فهو يفرض نوعاً من الحياة فى منتهى التقشف، ومثيراً للضيق والألم. على أن الكونتس تولستوى كانت إلى جانبه ساهرة على راحته، تستنبط الحيل للتوفيق - بقدر الإمكان - بين ما يفرضه هذا المذهب وبين ما تتطلبه الحياة العادية.

حدث أن ألم به مرض ثم أبل منه، فأشار الطبيب بأن يعطى قليلا من النبيذ مع الطعام، ليقاوم الضعف الذى خلفه المرض. وكان مذهبه يحرم شرب النبيذ فوجدت الكونتس حلاً مناسباً لإرضاء الطرفين، إذ فكرت فى أن تستعيض عن النبيذ بعصير العنب المختمر. هذا العصير - وإن اختلف الاسم - ليس فى الواقع إلا نبيذاً، ولكنه من نوع محلل لا لشئ، إلا لأنه لا يحمل اسم النبيذ.

وحدث مرة ثانية أن فكر تولستوى ألا يتقاضى من ناشرى مؤلفاته جعلا؛ لأن مذهبه يدعو إلى ذلك، ولأن الفن ليس مهنة يمنح عنها أجراً. والمرء لا يكتب إلا لينشر فكرته ويقدمها هبة لإخوانه؛ هذا ما يأمر به الإحسان وتدعو إليه الصداقة. وكشف تولستوى عن فكرته لزوجته، فهالها ما سمعت واستاءت، ولكنها تمكنت من معالجة الأمر وقالت له: «صحيح. هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة؛ فهى ملائمة لفكرتك النبيلة التى تقوم عليها مبادئ رسالتك، وأنا أقرك عليها يا ليف نيقولائيفيتش، أما قصصك التى نبذتها عنك وأنكرتها أمثال «حرب وسلم» و «أنا كارنين»، فهى مؤلفات شعبية وضيعة لا تصلح للوعظ والإرشاد ولا لهداية أحد، ولذلك فهى تختلف كل الاختلاف عن غيرها.» واستقر الرأى على ألا يتقاضى تولستوى كوبيكا واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية - وتلك كانت لا تباع بطبيعتها - ويستمر فى تحصيل حقوق التأليف عن قصصه المنبوذة المحتقرة - إذ أنه كان ينبذها ويحتقرها - وتلك كانت رائجة وتباع بكثرة مدهشة. إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك فى ظاهره. ولكن هل هو مضحك فى ذاته؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد، وكما يقرر أن يعيش طبقاً للفكرة التى يكونها عن الجمال...

إن مثل هذا العيش كئيب لا يسر. ومما يزيد فى كآبته أن تولستوى نفسه كان يتألم منه مُرّ الألم. وخير دليل على ذلك هو موته. كان قد تجاوز

الثمانين، وكان يعيش فى مزرعته فى ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفى ذات يوم غادرهم خلسة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصىٍّ مجهول ينشد فيه حريته . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعتزم أن يبتعد عن حياة تُنظم وتُعَدّ له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً فى الطرقات ، يمشى فى العراء بعيداً ، ويفقد ما بقى له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحبه فى العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شئ وترك كل شئ ؛ ليكون فى لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .

سليم سعده